AL-HUWAYYIK

SAFHAH MIN TARIKH MISR

صفحة

من تاريخ مصر

بقلم

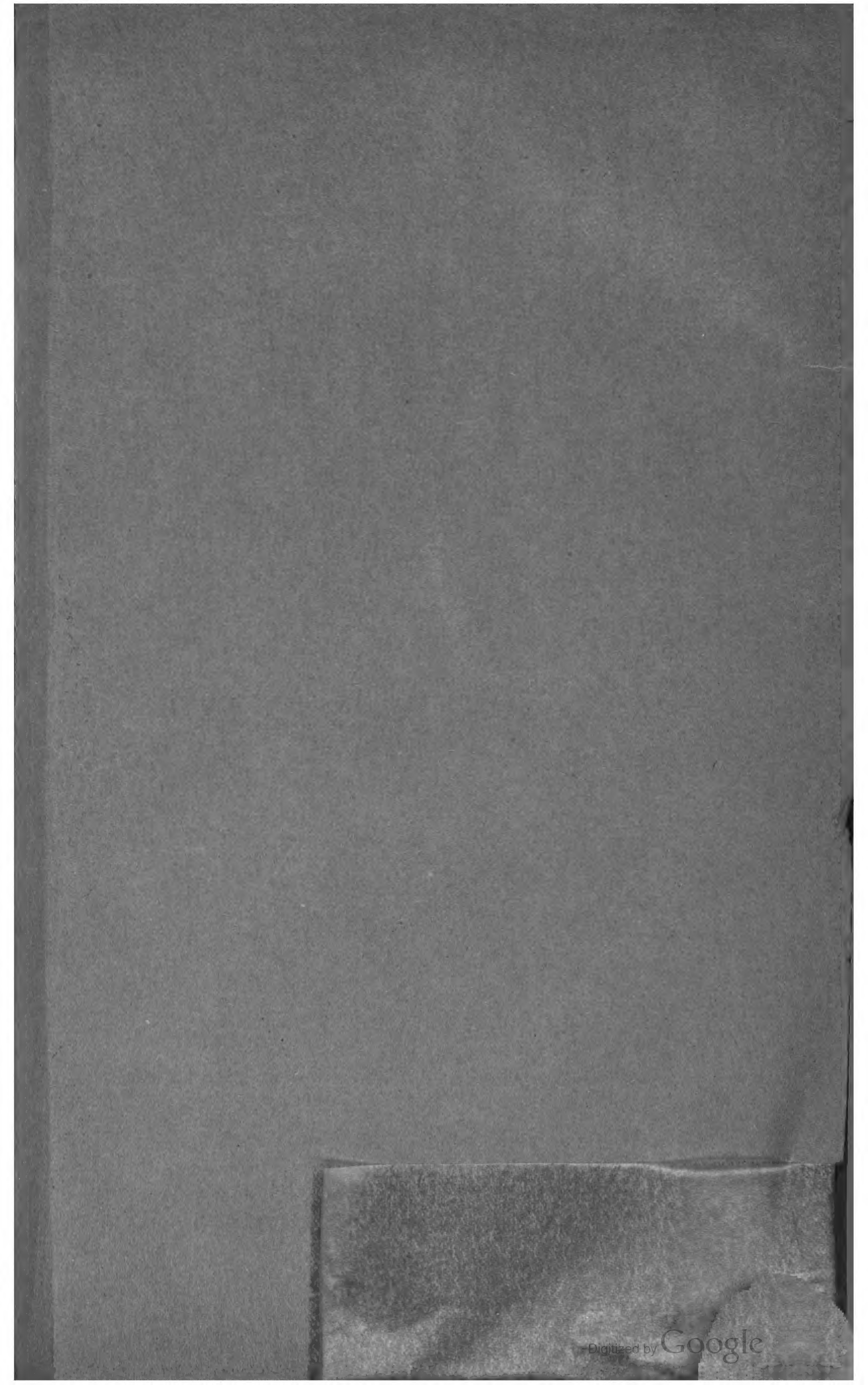
الياس طنوس الحويّك

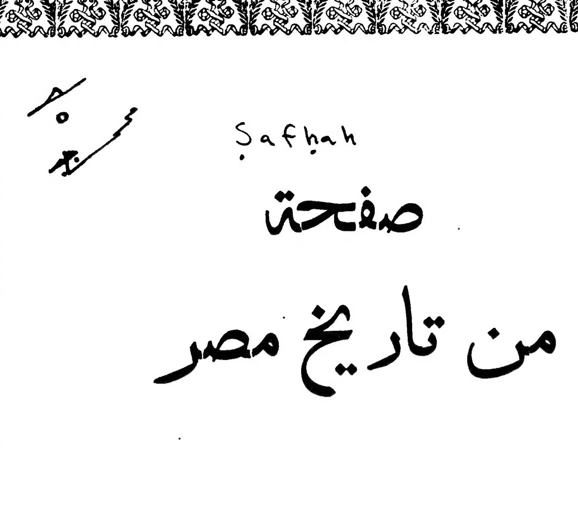


طبع علَى نفقة الهدى لمنشئه نعوم مكرزل * نيويرك سنة ١٩١٤

Al-Hoda, Publishing House, 81 West St., New York, U. S. A.

1914





صفحة من تاريخ مصر

بقلم

الياس طنوس الحويّك



طبع على نفقة الهدى لمنشئه نعوم مكرزل ☆ نيويرك سنة ١٩١٤

Al-Hoda, Publishing House, 81 West St., New York, U. S. A.

.........1914.........



بيان صغير

جرت ادارة الهدى منذ انشائها على طريقة خاصة بها ان تطبع على نفقتها كل كتاب مفيد للادباء والاديبات الذين يضحون في سبيل الوطنية والتهذيب والتربية العالية ما لا يستطيع او لا يريد غيرهم تضحيته وغرض الادارة من ذلك تنشيط الاداب وخدمة الشعب بخدمة الممتازين من ادبائه الذين يجودون بما لديهم اذ يكون الاغنياء والعظماء ضانين الا بالادعاء وشاحين الا بالخيلاء وفي ذلك دليل على ان الاصلاح لا يجيء على ايدي اكثر المثرين والمتفوقين بل على همم الافراد الذين « ينظرون ويشعرون ويضحون » وربما كان افيد وافضل واجرأ الكتابات ما ينشره المهاجرون الذين مزقوا البراقع عن عيونهم ليخدموا بها المتخلفين الذين لا يزال اكثرهم عاصباً عينيه بالخلق من الاغترار والمخرقة في الاعتبار بين مجد رث ووظيفة نخرها العث . ومن اخلص للمبادىء وكان للاداب والاصلاح كفوءاً اخلصنا له .

نعوم
مكرزل



بيان صغير

جرت ادارة الهدى منذ انشائها على طريقة خاصة بها ان تطبع على نفقتها كل كتاب مفيد للادباء والاديبات الذين يضحون في سبيل الوطنية والتهذيب والتربية العالية ما لا يستطيع او لا يريد غيرهم تضحيته وغرض الادارة من ذلك تنشيط الاداب وخدمة الشعب بخدمة الممتازين من ادبائه الذين يجودون بما لديهم اذ يكون الاغنياء والعظماء ضانين الاّ بالادعاء وشاحين الاّ بالخيلاء وفي ذلك دليل على ان الاصلاح لا يجيء على ايدي اكثر المثرين والمتفوقين بل على همم الافراد الذين « ينظرون ويشعرون ويضحون» وربما كان افيد وافضل واجرأ الكتابات ما ينشره المهاجرون الذين مزقوا البراقع عن عيونهم ليخدموا بها المتخلفين الذين لا يزال اكثرهم عاصبا عينيه بالخلق من الاغترار والمخرقة في الاعتبار بين مجد رث ووظيفة نخرها العث. ومن اخلص للمبادىء وكان للاداب والاصلاح كفوءا اخلصنا له.

نعوم

مكرزل



محمد علي باشا

= ١ =

مصر والمسألة الشرقية

— محمد علي —

منذ قرن من الزمـان تحولت انظار الفاتحين ودهـاة السياسة الى القطر المصري فجعلوا يعنون بـامره ويبحثون عما يوليه عمرانا ورقيا ويعتبر هذا القطر مركزا طبيعيا للعالم القديم وبابا لطرق البحر الكبرى ومفتاحـا لجميع الطوارىء في انحاء بلاد الهندولا يخفى ان اهمية موقع ذلك القطر تفوق اهمية موقع القسطنطينية ولم ينت هذاالامر دهاقنة السياسةواساطين الحكومات الاوروبية فقد كانت مصرفي النصف الاول من القرن المنقضي عقدة المسألة الشرقية وان نـابوليون بونابرت الذي استنزف المجهود لتضييق دائرة انكلترا وطوارئها وتصييرها اثرابعد عين فتح ارض الفراعنة مبتغيـا تدمير التجارة الانكليزية في الهند وماعتم ان ادخل اليها مدنية جديدة في مدة قصيرة ٠ فمصر المبحوث عن ماضيها ومستقبلها ونظامها الطبيعي والاجتماعي وحاصلاتها وحاجاتها ومواردها ابصرت امامها في اثناء اقامة الفرنساويين فيها عصر اقبال لم تكن قد شاهدته منذ قرون عديدة ٠ ومن الغريب ان ذلك انعمل العظيم الذي باشره الفرنسويون ووضعوه موضع الاجراء كان عقيمالهم فقد اتاحت الاقدار با ن الصحراء التي غشتها عظام الجنود الفرنساويين وزرعت

فيه بذور التمدن تقع غنيمة باردة لرجل مكدوني من سوقة الناس قيض له ان يجني ما زرعه غيره

ولد محمد علي في قواله من اعمال الروملي وطن الاسكندر ذي القرنين وقد كان يذكر ذلك في عنفوان عظمته متباهيا به بقوله غير مرة « وانا ايضا مكدوني » وكان يسر ايضا بان يقول انه ابصر النور في نفس السنة التي ابصره فيها نابوليون بونابرت اي سنة ١٧٦٩ ولكن لا يوجد شيء راهن يثبت صحة هذا الزعم الذي كان يفتخر به ذلك الجندي الذي ساعده الحظ على بلوغ ذلك المقام الرفيع · فلا شيء اصعب من معرفة عمر التركي الا معرفة عمر الالباني فالمواليد في تلك الاقاليم لا يثبتها ادنى مستند حقيقي وكثيرا ما يعلقونها على ذكرى حادث مهم راسخ في اذهان القوم · فيقول الشرقي « ولدت في السنة التي توفي فيها فلان » او « ولدت في السنة التي جرت فيها الفتنة في محل كذا » وهلم جرا

وتوفي والد محمد علي حين كان هذا الغلام ناعم الظفر ولكن ساق اليه القدر تاجرا مرسيليا يقال له الموسيو ليون فلما وقعت عين هذا التاجر على محمد علي وشاهد فيه ماشاهده من النجابة والنباهة مال اليه بجملته واحبه محبة الوالد لولده · واوحى اليه حب فرنسا والميل الى التجارة فانشأ محمد علي حانوتا وضع فيه تبغا وقضى ايام شبيبته في مزاولة بيع التبغ

ولما جند الباب العالي فيلقا من الالبانيين في قواله ليسيره الى مصر لمقاتلة الفرنساويين كان محمد علي من جملة اولئك الالبانيين وقد امتاز عن رفاقه في معركة ابي قير سنة ١٧٩٩ فكوفيء على بسالته برتبة يوزباشي

لا ينبغي ان ينسب مثل ذلـك التقدم الى الحظ في بلاد مثل البلاد العثمانية لئلا يبهم على الناس فهمـه فالبلاد التي من جملة مبادىء اهلها هذا المبدأ الفلسفي « حين يمنح الله منصبا يمنح في الوقت عينه الاهلية اللازمة للنهوض باعبائه » يرقد الواحد من سكانها صعلوكا مسكينا وينهض قائدا هماما

وبعـد خروج الفرنسـاويين والانكليز من مصر تنـازعت القطر المصري قوتان قوة المماليك الذين لم يكونوا يفترون عن رفع اعلام العصيان وقوة الباب العالي المؤلفة من اربعـة الاف الباني بينهم محمد علي باشا ولم يكن ذلك الداهية الالباني يني عن القاء الخلاف بين الاتراك والمماليك خادما كلا من الفريقين بالتناوب رغبة في اضعاف بعضهم بواسطة البعض الاخر غير مغفل عن استمالة خدمـة الدين والشعب اليه وكان حاكم مصر في ذلك العهد يدعى محمد خسرو باشا . فاستأنف مواقعة المماليك الخاضعين لزعيميهم الكبيرين عثمان البرديسي ومحمد الالفي وانكسرت جنوده في دمنهور فاتهم محمد علي بالخيانة زاعما انه هجر ساحـة القتال خاذلا رفاقـه واستدعاه اليه ليقتص منه ويهلكه جاعلا اياه عبرة ظاهرة فعرف محمد علي ما كان ينويه له الحاكم وفضل الاتفاق مع البرديسي ففتح له ابواب القاهرة وزحف معه على محمـد خسرو باشا فحاصراه في دمياط وساقوه اسيرا الى العاصمة وكان ذلك سنة ١٨٠٣

ويبتدىء من هـذا اليوم نفوذ محمد علي السياسي وارسل البـاب العالي حـاكما اخر لمصر اسمـه علي الجزائرلي فانتقض عليه الجند وجرعه كأس الحمام

ولما خلا للمماليك الجو واستتب لهم الامر واستأثروا بالسلطة عبثت بهم يد الشقاق وكان محمد علي يحرش كل فريق على الاخر فاضطر الالفي الى الانسحاب الى مصر العليا واكره انبرديسي الى مغادرة العاصمة وقد جرى ذلك سنة ١٨٠٤ وكان محمد علي باستناده الى الشعب والايمة قد اصبح صاحب الامر والنهي في مصر السفلى وكان بوسعه منذ ذلك الحين لو شاء ذلك ان يقبض بيده على ازمة الاحكام في القطر المصري برمته ولكنه حاذر ان يعرض منزلته التي لم تكن بعد قد رسخت اركانها وتوطدت دعائمها لعداوة المماليك الهائجين عليه والمتوخين هلاكه وسخط المولى الاعظم الذي ساق اليه الاهانة باحتقاره شخصية نوابه والغض من كرامتهم

وحمله الدهاء على ان يجعل سلطته مستذرية بكنف السلطة الشرعية فسعى لتنصيب خورشيد باشا حاكم الاسكندرية حاكما لجميع القطر المصري ولتنصيبه نائبا له وكان ذلك التنصيب الذي جرى برضى الباب العالي ممهدا في وجه محمد علي السبيل للوصول الى الغاية التي يطمح اليها بصره وتطمع بها نفسه اي الارتقاء من الدرجة التي هو فيها اي درجة السوقة الى مقام يضاهي مقام الملوك دون ان يكون له من سند غير شدة صريمته وقوة ارادته وتوقد نهيته



— ٢ —

خديوية محمد علي — طمع الانكليز بمصر — الفتك بالمماليك — حرب العربية

وكان لخورشيد باشا سلطة وهمية فثار عليه الالبانيون بحجة تقاضي مرتباتهم المتأخرة واما محمد علي فان منزلته في البلاد كانت امنع من عقاب انجو فكان يشن الاغارة على المماليك مبتغيا بذلك استمالة الشعب ولاسيما خدمة الدين اليه فانهم لم يكونوا يفترون عن التظلم منهم وكان له في القسطنطينية انصار يتفانون في تبييض صحيفته لدى الباب العالي واستمطار النعم عليه من سماء العرش الاسنى ٠ وتوهم خورشيد باشا انه يستطيع التملص من الالبانيين بترخيصه لهم بالعودة الى مواطنهم في اوروبا فتظاهر محمد علي بالامتثال لرغبة الحاكم ولكن لم يكد نبأ اقتراب رحيله يستفيض حتى قلقت الخواطر واضطربت الافكار وقام رجال الدين واعيان القاهرة يقيمون النكير على ارتحال محمد علي ورجاله ومما جعلهم يتظاهرون بحدة في ذلك الامر اعتبارهم اعتراضهم على مثل تلك الامور ظلا للحقوق الوطنية ٠ وحدث في اثناء ذلك الحين ان جنود خورشيد باشا الاتراك المتأخرة رواتبهم اغاروا على المدينة ونهبوها فاستاء الشعب والايمة من عملهم هذا استياء شديدا وعقدوا الاجتماعات فعقدت الخناصر على طرد خورشيد باشا من بين ظهرانيهم والقاء مقاليد الخديوية بين يدي محمد علي ٠ ففي بدء الامر

اظهر رغبته عما كانوا يقدمونه اليه ولم يذعن لارادتهم الا بمشقة كبرى وكان في الوقت عينه يسعى سرا مع انصاره في القسطنطينية للتزلف الى الباب العالي واستمالته اليه فنجحوا في مهمتهم ونالوا منه تنصيب محمد علي حاكما على مصر اجابة لرغبة الشعب المصري وانعم عليه ما عدا الخديوية بلقب باشا فاصبح الموت والحياة بين شفتيه وكان ذلك في ٩ تموز سنة ١٨٠٥

واصبح محمد علي باشا حاكما اكبر لبلاد مصر التي لم يكن اصحاب الغايات يفتأون عن تنازعها لاستدرار خيراتها واهتضام حقوق سكانها وكان محمد علي من اشد الطامعين بالخديوية دهاء وحنكة وتغريرا بالنفس . ولم يكد يستتب له الامر بعد اللتيا والتي حتى تألبت عليه جميع المطامع فتصالح محمد الالفي وخورشيد باشا وعرض لدى الباب العالي خضوعه ووعد بمساعدته لخلع محمد علي والتنكيل به وكان رجال سفارة انكلترا في القسطنطينية يعضدون الالفي مكافأة له على ميله اليهم وخدمته مصالح بلادهم اذ كان قد وعد بان يفتح ابواب جميع الثغور المصرية في وجه الانكليز فنشب الباب العالي في الاحبولة المنصوبة له وبهرت عينيه الهدايا الفاخرة المقدمة اليه وبادر الى انفاذ قبطان باشا او رئيس الاساطيل الاكبر الى مصر لاعادة المماليك الى ماضي سيادتهم ولترميم ما تداعى من صرح نفوذهم وكان من مهمته ايضا تطهير البلاد المصرية من عيث الالبانيين بعرضه على محمد علي باشا الانتقال الى ولاية سالونيك فابدى محمد علي باشا هذه المرة ايضا انه راغب في الامتثال لامر الباب العالي ولكن الايمة والعساكر والمماليك الذين من حزب البرديسي اعترضوا على مزايلته القطر المصري وطلبوا ابقاءه فيه وتدخل المسيو دروفتي قنصل فرنسا في تلك القضية فاوصى الاميرال التركي والسفير

الفرنساوي خيرا بمحمد علي باشا وعزا الى خمسة وعشرين فرنساويا كانوا متقيدين بخدمة الالفي ان يهجروا مراكزهم وفي اخر الامر صار الباب العالي يعتقد ان المماليك منقسمون على بعضهم ولا يرجى منفعة من وراء الاعتماد عليهم فحينئذ صدر فرمان جديد يثبت محمد علي باشا في الخديوية في مقابل هدية قدمها وكلفته سبعة ملايين ونصف مليون من الفرنكات

بعد مدة قصيرة حضرت الوفاة البرديسي والالفي زعيمي المماليك فتخرمتهما المنية سنة ١٨٠٧ وكان الانكليز الذين اصابوا في البوسفور فشلا محقرا يريدون رتق ما انفتق من بردة مجدهم بنيلهم بعض المرافق في مصر فعالجوا ان يستولوا بالقوة على ما كان الالفي قد وعدهم بان يمنحهم اياه وانزل الاسطول الانكليزي سبعة الى ثمانية الاف مقاتل الى البر بقيادة فرازر واحتل القسم الاكبر منهم ثغر الاسكندرية لما كان قد جرى بينهم وبين حاكم تلك المدينة من الاتفاق في ١٧ اذار سنة ١٨٠٧ وحمل الطيش قسما من جيش الانكليز على التوغل في اسواق مدينة رشيد الضيقة فاهلكتهم عن بكرة ابيهم عصابة من الالبانيين في ٢١ اذار . وارسل محمد علي باشا مائة جمجمة من جماجم اولئك الانكليز الى القاهرة فزينوا بها محلة الرملية . ولما الفى فرزار ذاته بغير عضد ولا معين اضطر الى الانسحاب والتسليم في الاسكندرية على ان يركب البحر متهادون ان يترك اسيرا واحدا من رجاله في حوزة محمد علي باشا وقد ركب متن مراكبه في ١٤ ايلول

دخلت بلاد مصر في ولاية محمد علي باشا ولكن كانت تعوزه الوسائل للتمتع بسلطته بسلام تقر به عيناه ففي الداخل شعب ابهظته اثقال

الضرائب وجيش شعاره النهب والسلب ومبدأه العصيان والتمرد على كل ذي سلطة وقتال دائم مع المماليك ومريديهم وفي الخارج سياسة الباب العالي المبنية على الحسد والضعف فاذا شاهدته مغلوبا اجهزت عليه واذا رأته منتصرا دبرت له المهالك سرا ويمكن القول بوجيز الكلام انه كان يرى حواليه خصومات قوية وبغضا شديدا دون ان تبلغ منه وتوهي جلده وتثبطه عن المسير في الجادة التي انتهت به الى غاية المجد والفخار وجعلته ينشىء مملكة مستقلة

وكان اول امر بدأ به لتذليل المصاعب التي تعترضه في طريقه كسر شوكة المماليك الا انه لم يجسر على مواثبتهم جهارا بل عمل سرا على اهلاكهم ليتسنى له ضربهم بتلك الضربة التي طمست رسومهم وعفت اثارهم فاوعز الى بعض اشياعه ان يكتبوا الى المماليك بان فريقا من الجنود الاتراك ينتظرونهم في القاهرة ليساعدوهم على شق عصا الطاعة ورفع علم العصيان فاسرع بعضهم الى القاهرة ونشبوا في الحبالة المنصوبة لهم ثم انه اضطر الى اهلاك جنوده انفسهم وتولى امر المحافظة بنفسه على عاصمته فكان يجول ليلا ونهارا وهو متنكر في الشوارع والملاهي والمحلات العمومية ويسلم للخفراء الذين كانوا يتبعونه عن كثب كل من يجنح عن الطريقة المثلى وكثيرا ما كان يعاقب بيده من يجدهم في حالة الخطأ

وقصارى الكلام ان الشعب قدر له شدة صريمته حق قدرها فكان له من وراء ذلك انصار عديدون وما عتمت سلطته ان اصبحت راسخة الاركان فنظر اليها الباب العالي بمقلة التحفظ وصمم على اقامة العقبات في طريقه والقاء الجنادل في سبيله

وكان في نجد طريقة تدعى الوهابيين انشأها منذ خمسين سنة الشيخ عبد

الوهاب وسماها باسمه ولم يكن اصحاب تلك الطريقة يعتقدون الا بنص القرآن دون سواه وينبذون الحديث وجميع الشروط والتقاليد وانتقال السلطة في سلالة النبي محمد وتطرقوا بذلك الى انكار سلطة السلطان واستولى الوهابيون على الحجاز واليمن وكادوا يستولون على الشام وبغداد فاغتنم الباب العالي الفرصة من خروج تلك الاقوام عليه وعزم على اضعاف محمد علي بايعازه اليه مقاتلة الوهابيين واخضاعهم٠ فامر السلطان محمود الثاني خديوي مصر بالشخوص الى العربية لمحاربة الثائرين واستخلاص مكة والمدينة من ايديهم فلم يتردد محمد علي باشا في تلبية طلب السلطان مولاه ولم ترعه تلك الحرب التي تقتضي كثيرا من الرجال والاموال بل رأى في تلك الحرب اسبابا جديدة تزيد سطوته وثروته

ولم يكن يثبطه عن مباشرة الحملة والزحف على الوهابيين سوى امر واحد فان المماليك كانوا قد ضموا متفرق شملهم وجعلوا يعيثون فسادا في ارض مصر ويترصدون من محمد علي باشا غفلة ليدخلوا العاصمة ويستعيدوا ماضي مجدهم فلم يستصوب الخديوي الانطلاق بجيشه وترك المماليك وراءه مخافة ان يجروا امورا تسوء عقباها وحينئذ فكر في امر التملص منهم بالجري على المنهاج الذي جرى عليه السلطان محمود الثاني حين نكب الانكشارية نكبة ابادتهم عن بكرة ابيهم

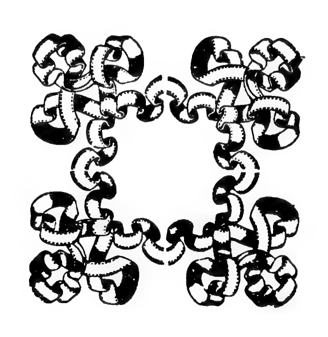
وفي اول اذار سنة ١٨١١ دعيت اسرة الالفي الى قلعة القاهرة لتشهد حفلة تقليد طوسن ابن الخديوي قيادة الحملة على العربية فلم يسعها نبذ تلك الدعوة التي عدتها التفاتا وانعطافا ولاسيما لان تلك الاسرة كانت منذ مدة قصيرة قد نالت بعض العوارف الغرارة

وكان اولئك الفرسان الذين وصفهم بونابرت بكونهم افضل الفرسان في العالم يسيرون على الطريق المؤدي الى القلعة بين جدران تكثر فيها المرامي فترجلوا امام السراي وادخلهم الحجاب على الخديوي في مجلسه وبينا المماليك يودعون لينصرفوا دنا احد ضباط القصر من ضابط فرقة فرنساوية كانت باقية مع العساكر المصرية وجذب طرف ردائه هامسا في اذنه بان يظل مكانه فامتثل لتلك الاشارة وحذا رجاله حذوه وبعد بضع دقائق سمع صوت مدفع تلته عيارات نارية عديدة · فان المماليك لم يكادوا يتوغلون في الممر الضيق حتى ابصروا الابواب تغلق خلفهم وشاهدوا من وراء المرامي بنادق الالبانيين الطويلة وكانت مذبحة هائلة لم ينج منها سوى مملوك واحد ونجا الفرنساويون من الردي بفضل محمد علي باشا وميله اليهم كما مر بيانه

وفي اليوم عينه والساعة نفسها ذبحوا المماليك الاخرين في شوارع القاهرة وفي المدن الاخرى وبرية الصعيد والدلتا · واضطر الذين نجوا منهم الى الالتجاء الى الصحراء وهكذا انقرض اولئك الفرسان الذين كانوا يستنزفون منذ القرن الثالث عشر موارد القطر المصري ويقذفون الذعر على افئدة سكانه واما محمد علي باشا فانه لطخ بردة سمعته بعمل فظيع تتبرأ منه الانسانية ويظل مدى الدهر يذكر فلا يشكر

ولما زال ما كان محمد علي باشا يخشاه سيرت البعوث الى العربية · وكانت الحرب مع الوهابيين طويلة الاجل محفوفة بالمصاعب والمتالف يتعاقب فيه النصر والفشل على كل من الفريقين · وقد دفع اليأس والبأس الوهابيين الى مقاتلة المصريين قتالا احبوا معه الموت فاضطر ابراهيم باشا ثاني انجال الخديوي الى موافاة اخيه طوسن ونجدته وزحف محمد علي باشا

ذاته على الحجاز واستغرقت تلك الحملة ست سنوات اجرى فيها الجيش المصري اعمالا حربية غريبة تدل على الشجاعة والاقدام والصبر على الشدائد وقد هلك منه خلق كثير وفي اخر الامر تمكن ابراهيم باشا من الاستيلاء على درجة عاصمة سلطنة الوهابيين الجديدة وتدميرها وتدويخ انصار تلك الطريقة واستخلاص المدينتين المقدستين من ايديهم وتأمين طريق الحج وكافأ السلطان محمود الثاني ابراهيم باشا على مآتيه العظيمة بمنحه اياه لقب والي مكة وكان ذلك سنة ١٨١٨



— ٣ —

فتح السودان

وكانت بلاد العربية قد التهمت نخبة جنود المصريين في اثناء الحرب المار بيانها ولم تعد البلاد التي فقدت خيرة رجالها ونضبت منها موارد الرزق قادرة على ترميم ما تداعى من صرح مجدها ورتق ما تفتق من مطارف سوءددها والاستعاضة عما قضى عليها الدهر بفقده فحول الخديوي انظاره الى الاقاليم الجنوبية سعيا وراء موارد جديدة

وكانت الغاية التي يرمي اليها محمد علي باشا في بعثة السودان الاجهاز على من بقي من المماليك اللاجئين الى بلاد النوبة والاستيلاء على اهم سوق من اسواق العبيد في العالم الاسلامي واحتكار مناجم الذهب في جبال الحبشة وكان محمد علي باشا ينوي الزحف على مملكة سنار على ضفاف النيل الازرق المتوفر فيها وجود المناجم الذهبية والرجال الاشداء

وبوشرت تلك الحملة سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٤ قبل حرب اليونان بمدة قصيرة ولكن الحوادث المعاصرة لها حولت الانظار عنها فلم يكترث لها الملاء السياسي اكترا ثا يذكر والسودان الشرقي او السودان المصري هو عبارة عن تلك الاراضي الفسيحة الممتدة من حدود مصر الجنوبية الى بحيرات البرت وفكتوريا نيانزا ومن البحر الاحمر الى الصحراء ودارفور . وهو القسم الذي في وادي النيل بين ينابيعه والشلال الاول وكانت الخطة التي توخاها المصريون المسير في

وادي النيل وهو الطريق الوحيد الذي فيه ماء واخذ الضفة اليسرى التي تقيها من هجمات الاعداء صحراء ليبيا المنبسطة غربي سلسلة الجبال الممتدة عند الشاطئ

وفي ١٨ تموز سنة ١٨٢٠ تحرك جيش الحملة وقوامه اربعة الاف مقاتل ومشي بقيادة اسماعيل باشا ثالث انجال الخديوي ولم يكن لاسماعيل سوى اثنتين وعشرين سنة من العمر فركب المشاة متن السفن الشراعية وصعدوا بها النيل وسار الفرسان على الشاطئ يقطعون مراحل قصيرة حتى بلغوا الشلال الثاني الذي يدعى شلال وادي حلفا عند حدود مصر الجنوبية وكان وصولهم اليه بعد خروجهم من مصر بشهرين ونصف

وتوغل جيش الحملة في النوبة وهي بلاد مجهولة قاحلة التربة قليلة المياه يهلك الناس فيها من العطش وهي التي التهمت في خالي الحين جيش كمبيز برمته • وهذا الاقليم يمتد محاذيا ضفة النهر اليسرى فسارت البعثة فيه وقد لقيت في اثناء مسيرها مشقات كثيرة وعند مرور الاسطول بالشلالين الثالث والرابع فقد شطرا من سفائنه وبعد ثلاثة اسابيع وصلت العساكر المصرية الى دنكله مجتازة بلاد النوبة السفلى دون ان تثبطها عن التقدم تلك المصاعب التي تصدت لها في طريقها وهناك عثرت على المماليك الذين فروا من القاهرة ونجوا من المذبحة الهائلة التي جرت فيها وانتهت الى كورتي وهي الطرف الجنوبي للمنعطف الكبير الذي على شكل الحرف S الافرنجي الممتد نحو اربعمائة كيلو متر لنهر النيل •ولقي اسمعيل باشا في ذلك المكان مقاومة شديدة من الشيخية وهي قبيلة من قبائل العرب استوطنت منذ ستمائة سنة جنوبي دنكله في ارض مبلغ طولها نحوا من ثلاثين فرسخا • وبعد وقعتين متواليتين

ظفر بها المصريون بفضل سلاحهم الجديد دخل اسمعيل باشا كورتي وهي التي يسميها هيرودوطس نباطا التي غزاها الرومانيون · وحينئذ صحت عزيمة قائد الجيش المصري على البقاء في كورتي لانتظار النجدات ووصول الاسطول وتحققه ما كان من ميل القبائل المجاورة فضرب خيامه في ظاهر البلدة على مقربة من الشلال الرابع وقضى فيها اربعة اشهر

وفي ٢٠ شباط سنة ١٨٢١ استأنف الجيش المصري زحفه موغلا في بلاد اقل قحولة من بلاد النوبة ·وهي المنطقة الثانية من المناطق الثلاث المحيطة بافريقيا وهذه المنطقة تسمى منطقة الاعشاب العالية وموقعها بين المنطقة الاولى التي تكثر فيها الرمال المحرقة والمنطقة الثالثة المتوفرة فيها نباتات الخط الاستوائي الناضرة

وفي ٥ اذار وصل اسمعيل باشا الى بربر بعد اجتيازه مجاهل بيوضه على الطريق التي تسير عليها القوافل من النيل المتوسط الى البحر الاحمر ·وجاء نيمير سلطان شندي وادى له الخضوع فاستقبله القائد المصري ببرودة واستعلاء فكان ذلك الاستقبال مدعاة لاضرام نيران حقد في قلب السلطان الافريقي بدت نتائجه الهائلة فيما بعد ·

وفي ٢٤ ايار انتهى اسمعيل باشا الى ام درمان قرب ملتقى النيلين وكان يقصد ان يعبر النيل الابيض من ذلك الموضع وقد اخره ذلك الامر الشاق اربعة ايام فنزل بين النيلين على لسان من الارض مسطح يدعى رأس الخرطوم ولم تكن العين تقع على ادنى قرية او ادنى منزل في الموضع الذي انشئت فيه فيما بعد عاصمة السودان المصري· وكان اسماعيل باشا قد وصل بجيشه الى مملكة سنار المعتبرة ما بين النهرين الافريقية فان النيلين الابيض والازرق

يكتنفانها بتعاريجهما ومنعطفاتهما وسقطت تلك المملكة المنيعة في ايدي المصريين غنيمة باردة دون ان تكلفهم ادنى معركة ودون ان تسفك في سبيلها قطرة واحدة من الدم وفي ١٢ حزيران دخل اسمعيل باشا عاصمة مملكة سنار دخول الفاتح

وقال احد كتبة الفرنسيس في عرض الكلام عن تلك الحوادث ما يأتي

« اذا وجد في التاريخ اكتشافات مسلحة سلمية او حدث بعض الاعمال الخطيرة التي تستطاع مقابلتها من جهة الجرأة والنجاح باعمال كورتز وبيزار فما ذلك الا الحرب التي جرت سنتي ١٨٢٠ و ١٨٢١ وافتتح في اثنائها اقليم تبلغ مساحته اربعمائة فرسخ دون ان يلقى الفاتحون في اثناء مسيرهم من تصدى لهم تصديا جديا . ولم يقتض اكثر من سنة توسيع دائرة السلطة المصرية في بلاد تقع في اربع عشرة درجة وتمتد من الشلال الاول حتى حدود غالاس »

وبينا اسمعيل باشا ورجاله يستولون على مملكة سنار كان محمد بك صهر الخديوي المعروف باسم الدفتردار ينفصل عن مصر في مفتتح سنة ١٨٢١ بجيش قوامه اربعة اوخمسة الاف مقاتل مجتازا به بلاد النوبة . وكان يسير جنوبي دنكله الى جهة مخالفة للجهة السائر اليها اسمعيل باشا فتوغل في الصحراء الجنوبية الغربية ميمما كردوفان وهي بلاد مسطحة كثيرة الجفاف على شكل مربع الاضلاع تمتد على ضفة النيل الغربية . وكانت نتيجة هذه الحملة انتصار المصريين في بارا واستملاكهم تلك البلاد الموازية مساحتها نحوا من ٢٥٠ الف كيلومتر مربع

وقد قيل في الامثال « دوام الحال من المحال » فان الحظ قلب للمصريين فجأة ظهر المجن فحين كان اسماعيل باشا يأسر في مملكة ستار العبيد وهي من جملة الغابات التي كان يتوخاها من وراء ذلك الفتح حل بالمصريين وباء شديد الوطأة وخيم المغبة اهلك منهم في شهرين من الزمان ١٥٠٠ نفس ٠ وخف ابراهيم باشا الى سنار لنجدة اخيه فكان وصوله اليها في ٢٢ تشرين الاول سنة ١٨٢١ ومعه فيلق من الجنود البواسل فاتفق مع اخيه على توسيع نطاق النخاسة ولكنه ما عتم ان اصيب بالوباء ٠ ولما تماثل انقلب راجعا الى مصر بعد ان ترك قيادة رجاله بيد طوسن بك وكانت الاقدار في ريق الامر مهادنة لاسمعيل باشا فصعد في النيل الازرق حتى بلغ وادي طومات التي فيها المناجم الشهيرة قبلة امال محمد علي باشا وغاية امانيه ومطمح انظاره ٠ اجل ان التبر كان موجودا في تلك المناجم ولكنه لم يكن وفيرا ولم يجن اسمعيل باشا من الاعمال التي باشرها في تلك المناجم ثمارا كثيرة الا انه استعاض عن النضار بالرقيق وما مكث اولئك العبيد ان هبت رياح الجرأة في صدورهم فجعلوا يتحفزون للقيام على المصريين والدفاع عن حياضهم ولم يعد اسمعيل باشا يرى له بدا من العودة الى سنار فعاد اليها واضطره التعب واليأس الى الطلب من ابيه ان يأذن له بالرجوع الى مصر فاجاب والده سوءله

وبينا اسمعيل باشا قافل الى مصر مر في طريقه ببلاد السلطان نيمير الانف الذكر فتقاضاه دفع جزية مقدارها مائة وعشرة الاف فرنك وضربه على وجهه بقصبة التبغ متوعدا اياه بان يرفعه على الخازوق ان هو تأخر عن تأدية ذلك المبلغ فشعر سلطان شندي بان الكيل قد طفح وحدث في الليلة

التالية ان الامير المصري اقام وليمة شائقة فلم تمكن سورة الخمرة ذلك الامير ورجاله من روءية رجال شندي ينضدون خفية حول معرس المصريين كوما من العلف • وبعد هنيهة من الزمان اضرمت النار في تلك الكوم فاندلع لسانها الى جميع الجهات في وقت واحد واندفع اسمعيل باشا وجلساءوه مبتغين الفرار من النار المحيطة بهم من كل جانب وما كادوا يجتازون نطاق اللهيب المحرق حتى ابصروا نطاقا ثانيا من الحراب والوجوه القبيحة فهجم عليهم رجال شندي وجرعوهم كوءوس الحمام مترعة الى اصبارها وفي الوقت عينه مالوا على سائر المصريين وعفوا آثارهم

ولم يكن هلاك ذلك الامير المصري الشاب ليفقد مصر البلاد التي غزاها بالعساكر المصرية فوكل محمد علي باشا امر الانتقام لنجله المأسوف عليه الى صهره الملقب بالدفتردار فاتح بلاد كردوفان • وكان من امر الانتقام الذي انزله صهر الخديوي باهل شندي على شكل فظيع لم يسبق له نظير ان القوم في بلاد النوبة حتى بلاد سنار رفعوا اعلام العصيان وهبوا هبوب النار من سنة الكرى

واتى الدفتردار مظالم تشيب من هولها الاطفال ويتناقل ذكرها الخلف عن السلف ولم يبق من مدينة شندي العامرة سوى اطلال تغمرها غدران الدم وقد تمكن السياح الذين انتجعوا السودان في السنة التالية وما يليها من روءية عدد كبير من الناس الذين افرغ عليهم الدفتردار كوءوس الحمام • فهذا اذناه مصلومتان وذاك عيناه مقلوعتان وذلك انفه مجدوع وغيره لسانه مقطوع وسواه اسنانه محطمة ••• وهذه المرة فتحت السودان فتحا حقيقيا ومع ان هذه البلاد متصلة بالقطر المصري بالوحدة الجغرافية

فقد انفصلت عنه منذ الفي سنة اي منذ تضعضع اركان سلطنة الفراعنة الواسعة الارجاء · وقد اضاف محمد علي باشا الى جميع القابه لقب الغازي واوشك بواسطة تدخله في بلاد الاغارقة ان يرفع القطر المصري الى درجة الممالك العظمى





ابراهيم باشا المصري

=٤=

حرب المورة = الخلاف بين محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني

وفي مفتتح سنة ١٨٢٤ كان ثوار الاغريقيين ظافرين في كل ناحية في البحر بواسطة الحراقات وفي البر بواسطة الجوع والعطش اللذين اضطرا الحاميات المحاصرة الى التسليم فلم يتردد السلطان محمود الثاني في امر استنجاد خديوي مصر وانعم عليه بولاية المورة مفوضا اليه امر فتحها وحينئذ صاح احد وزراء محمد علي باشا قائلا « فلينزع الله التيجان عن روءوس ملوك الارض طرا ويضعها على مفرقك لانها تخصك فانت بونابرت افريقيا » ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي استنجد فيها السلطان عامله الشديد البأس فان حسن باشا صهر محمد علي باشا كان قبل ذلك الحين بسنتين قد اعاد مياه السكينة الى مجاريها في جزيرة كريت والجأ العصاة الى الاخلاد الى الطاعة

واستفرغ محمد علي باشا كل مجهوده لارضاء السلطان مولاه لانه كان يعتبر تلك المهمة شرفا عظيما له ولاسرته ويرى امامه سبيلا مفتوحا للتنكيل بقراصين اليونان الذين كانوا قد غزوا مياه مصر وعاثوا فيها فسادا

وقبل ان تستكمل معدات الحملة ويصير الزحف مستطاعا نفذ صبر محمد علي باشا فامر قسما من الاسطول بالاقلاع بثلاثة الاف الباني لمباشرة تلك الحرب التي كان ميالا بجملته الى اضرام مواقدها فانطلقت السفن ميممة جزيرة كاكسوس واستولت عليها ليل اليوم التاسع عشر من شهر حزيران وفي

٣ تموز استولى خسرو باشا قائد الاسطول العثماني على ابصارا

وكان لسقوط تينك الجزيرتين المعتبرتين حصنا منيعا للقراصين يتعذر على اي كان الاستيلاء عليهما رنة ابتهاج في قلوب المصريين والالبانيين المحتشدين في ثغر الاسكندرية وعددهم سبعة عشر الفا لمشاطرة اخوانهم القتال في المعارك الدائرة فيها رحي الحمام

وفي ١٠ تموز سنة ١٨٢٤ جرت في عرض البحر سفائن الاسطول المصري بقيادة ابراهيم باشا الذي فعل في بلاد العربية افعالا جعلت اسمه فيها مرهوبا وبعد معاركة الريح الشمالية العنيفة مدة اربعة وعشرين يوما تمكن بطل مصر من الوصول الى خليج مقري والقاء المراسي فيه . وفي اول ايلول اجتمع بخسرو باشا في ميناء بودرون وبعد ان الحق به مياولي قائد الاسطول الاغريقي الاكبر خسارة جسيمة ومع ما كان الشتاء يتهدده ببرده القارس استطاع ابرهيم باشا ان يصعد الى البر في مودون جنوبي المورة وكان صعوده اليها في ٢٤ شباط سنة ١٨٢٥ وقد تمم بذلك الامر نذرا كان قد نذره في الاسكندرية منذ ثمانية اشهر وهو الا يطأ اليابسة باخمصيه الا عند سواحل المورة

وكان النصر محالفا للمصريين في بدء الامر فظفروا بالاغريقيين في مواقع ومناوشات عديدة حتى توهموا ان بلاد الاغارقة ستدخل برمتها في حوزتهم ولكن ما لبثت الاقدار ان هبت لمناوأتهم وافقدتهم الثمار التي كانوا يعللون نفوسهم باجتنائها من تلك الحملة التي كلفتهم كثيرا من الجنود والاموال . ففي ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٢٧ نكب المصريون نكبة اليمة بفقد اسطولهم في نافاران ثم ان البعثة الفرنساوية التي تولى قيادتها الجنرال ميزون اضطرت ابراهيم باشا ورجاله الى الانسحاب من بلاد اليونان والخروج منها خروجا نهائيا

والعودة الى بلادهم

وفي ٩ تشرين الاول سنة ١٨٢٨ دخل ابراهيم باشا ثغر الاسكندرية بعد ان تغيب عنه اكثر من ثلاث سنوات .

ويزعم بعضهم ان البعثة الفرنسوية التي سيرت الى المورة لم تكن في واقع الحال سوى حيلة لجأ اليها المسيو دروفتي قنصل فرنسا في الاسكندرية ومالاءه عليها محمد علي باشا والسبب في ذلك هو ان الخديوي كان محتاجا الى الصلح لتنظيم جيشه وترميم ماليته وكان الشعب المصري قد صار الى حالة يرثى لها من جراء ثقل الضرائب التي ابهظته وفقدانه عددا كبيرا من ابنائه الذين هلكوا في الحروب المتوالية ولكن لما اعلنت الحرب بين روسيا وتركيا لم يسع محمد علي باشا ان ينسحب من القتال مخليـا المورة دون ان يتعرض لانقضاض صواعق سخط السلطان مولاه على رأسه واستياء الامة الاسلامية منه ومن ثم اضطر الى التظاهر بانه انسحب مكرها ولم يكن من غاية للبعثة الفرنسوية الى المورة الا ايجاد عذر كاف لخروج ابراهيم باشا من بلاد اليونان وسكوت الدولة العثمانية عن تقاعده عن نجدتها ومساعدتها

ولم يكن ذلك العذر كافيا لتبرئة ساحة محمد علي باشا في القسطنطينية مع ما بذله من التحفظ للتظاهر باستياء شديد لعدم تمكنه من نجـدة مولاه السلطان فصار الباب العالي ينظر اليه بطرف الريبة وشعر الخديوي بتنكر القسطنطينية عليه وسقوط نفوذه فيهـا وكانت حملة المورة قـد جعلته ينفق عشرين مليونا من الفرنكات ويفقد قسما مهما من جيشه وكل اسطوله الذي تحطم وهلك في نافاران فالتمس لنجله ابرهيم ولاية الشام مكافأة له على خدمه فرفض التماسه هذا وانعم على ابرهيم بـاشا بولاية جزيرة كريت فكانت تلـك

تضرسلطته اكثر مما تنفعها فحينئذاستاءمحمد علي باشا من رفض السلطان ما كان قد التمسه منهوابى ان يوءدي اليه الاتاوة السنوية المضروبة على مصرمدعيا بان الحرب الاخيرة قد استنزفت كل ما كان لديه من المال فلم يتجرأ السلطان محمود الثاني على معاملة عامله بالعنف لانه كان في ذلك الحين قد وقع وثيقة ادرنه المجحفة بحقوق السلطنة وكان ايضا يرفع الصوت محتجا على فتح الفرنساويين لبلاد الجزائر

ولم يقف الخديوي الهابة في صدره رياح المطامع عند حدود ذلك العمل الدال على طموح بصره الى الاستقلال بل مال الى احتلال سوريا لاعتباره استملاكها امرا ضروريا لتوطيد اركان سلطته في مصر وتامين مستقبله فيها ٠ ولقي لديه حجة مكنته من غزوها فان والي عكا ابى ان يرد اليه ستة الاف فلاح مصري هربوا من السخرة

وسنة ١٨٣١ زحف ابراهيم باشا بجيش مصري على بلاد الشام ففتح غزة ويافا وحاصر عكا وبعد ستة اشهر سلمت له تلك المدينة فدخلها ظافرا وكان دخوله اليها في ٢٧ ايار سنة ١٨٣٢

ودخل الجيش التركي سوريا ليطرد ابرهيم باشا منها ولكن هذا الاخير هزمه في حمص بحملته عليه حملة صادقة بالسيوف والحراب وكانت خسارة المصريين في تلك الحملة مائة وجنديين وخسارة الاتراك خمسة الاف مقاتل وذخائر كثيرة وقد فتح ذلك النصر الباهر في وجه المصريين ابواب ولايتي حلب وسوريا وانكسر جيش اخر للاتراك في قونيه قوامه ستون الف محارب انكسارا حقيقيا

ولما ضاقت الحيل في وجه السلطان محمود الثاني واعياه امر عامله وخاف

من استفحال شأنه طلب من روسيا تدخلها في المسألة فبادره القيصر الى سوق الجيوش الى القسطنطينية وكان الاميرال روسان قد نصب سفيرا لفرنسا في القسطنطينية في اثناء ذلك الحين وفوض اليه ان يبذل الوسع لتخليص السلطان من حماية روسيا ومن الحملة المصرية فلقي امامه مشقة كبرى وصعوبة عظمى فعالج ان يهول على محمد علي باشا ليحمله على الاكتفاء بالامتيازات التي يمنحه اياها السلطان ولما لم يصب مبتغاه انضم الى سفير انكلترا مؤملا ان يقنع محمودا بقبول الشروط التي يقترحها الخديوي . وكان الاسطول الروسي قد دخل البوسفور فرضي السلطان محمود الثاني بان يمنح الخديوي مطالبه وثبته بموجب وثيقة كوطاهيه في حكومة مصر والحجاز وكريت وترك له كل سوريا ولابنه ابرهيم باشا ولاية ادنه وعلى هذا الوجه انقضى الشطر الاول من هذا الخلاف فكان الربح فيه للخديوي وقد جرى ذلك الاتفاق في ١٣ ايار سنة ١٨٣٣

وكانت وثيقة كوطاهيه مجحفة بحقوق السلطنة ومحقرة لمقامها ولذلك لم تكن من الوثائق المتينة الاركان وكان الخديوي من جهة اخرى وقت ما اصبح ولي الامر والنهي بشكل نهائي ثابت في القطرين السوري والمصري يبتغي ان يجعل الولاية وراثية في اسرته تنتقل من السلف الى الخلف وان ينشيء سلالة تشبه سلائل الملوك جاريا على نفس المنهاج الذي جرى عليه نابوليون بونابرت وكان محمد علي باشا داهية في السياسة فاغتنم الفرصة من الاستياء الناجم في لندن وباريس عن عقد وثيقة انكيار سكيلاسي واقترح على انكلترا وفرنسا والنمسا ان يعترفن به سلطانا مستقلا . وكان ممكنا ان يكون ذلك الاقتراح سببا لاضرام نار حرب اوروبية عمومية فارتعدت فرائص اولئك الدول

الثلاث عند افتكارهن بامكان حدوث تلك الحرب الطاحنة الهائلة ونبذن طلب الخديوي نبــذ النواة فلم تخر عزائم محمد علي باشا لدن احباط مساعيه هذه المرة وعالج ان يصيب بالحيلة ما لم يكن قادرا ان يصيبه بالقوة ٠ ان محمد علي باشا كان يعلم ان للنساء على السلطان محمود الثاني تأثيرا شديدا فارسل الى القسطنطينية بمهمة فوق العادة زهراء الحسناء ايم ابنه اسمعيل فهذه المرة لم يكن للاغواء شأن يذكر عند السلطان محمود الثاني لان بغضه كان يفوق غرامه ولم تتمكن زهراء الحسناء من امتلاك فوءاده والتصرف به كيف شاءت وكانت الحرب التي اوقفت الــدول الاوروبية رحاها منذ سنة ١٨٣٣ موشكة ان تعود وكان السلطان محمود الثاني هذه المرة البادىء بشهر الحرب فان عاماه لم يكن منذ تسع سنوات قد دفع له الجزية السنوية

وصدر امر السلطان محمود الثاني الى حافظ باشا قائد الجيش التركي بان يعبر نهر الفرات وكان يريد معاقبة محمد علي باشا ونجله ابراهيم باشا لتمردهما عليه ولكن ابراهيم باشا بمعاونة الميرالاي سيف الفرنساوي مزق شمــل الجيش التركي في معركة هائلة امام اسوار مدينة نصيب في ٢٤ حزيران سنة ١٨٣٩ وقتل منه مقتلة عظيمــة واصاب غنيمة وافرة ٠ وكان يستطيع هذه الدفعة ايضا ان يــدمر السلطنــة العثمانية ويدخلها في خبر كان ٠ وبينا هو يهم باجتياز مضايق جبال طوروس اوقفه اليوزباشي كابيه حاجب المشير سول الفرنساوي واعدا اياه بان فرنسا تساعده على الحصول على كل ما يأمل نيله بقوة جنوده المظفرة وفي اول تموز لفظ السلطــان محمود الثــاني انفاسه المعدودة وقد انهكته معــاقرة الخمرة والمتاعب الناشئة عن قلق لا تخمد ناره وخلفه ابنه عبد المجيد وله من العمر سبع عشرة سنة صعد السلطان عبد المجيد على

سرير السلطنة في احوال حرجة للغاية فقد كانت السلطنة مستهدفـة لسهام مخاطر تتوعد كيانها وكان احمد فيضي باشا اميرال الاسطول التركي مقربا من السلطان محمود الثاني فلما استوفى مولاه بخته من هذه الدنيا خشي ان يتغير عليه قلب خليفته فيفصله من منصبه فخرج بالاسطول من البوسفور وابحر به الى الاسكندرية ليسلمه الى الخديوي وحينئذ تحقق محمد علي باشا ان مستقبله مضمون وانــه يستطيع ان ينــال من السلطان كل ما كانت نفسه طامعة به وابصاره طامحة اليه وقد اسعده الحظ بان يكون السلطان الجديد عاجزا عن مقاومته ومحاربته فعرض عليه السلطان عبد المجيد ان يتوارث اعقابه الحكم في القطرين المصري والسوري وكان من امر تدخل الدول الاوروبية العظمى في الخلاف الطارئ بين السلطان وعامله ان المسألة التركية المصريــة اصبحت مسألة اوروبية



=٥=

تدخل الدول الاوروبية = اذلال الخديوي

وكانت فرنسا قد صممت على توقيف محمد علي باشا في نصف الطريق السائر فيها الى غاية الانتصار مع محافظتها على موالاتها له واما انكلترا التي كانت تحسد فرنسا على ما اصابته من النفوذ في البحر المتوسط وفي القطر المصري فقد جاهرت بوجوب المحافظة على كيان تركيا والتصدي لكل من تحدثه النفس بتجزئتها واضعافها ٠ وعمد بالمرستن وزير خارجية انكلترا وداهية سياستها الى اجراء بعض المفاوضات في ذلك الشأن رجاء ان يبلغ امنيته وينتهي الى متوخاه ٠ ففي مفتتح الامر اقترح على وزارة سول وجوب الاتحاد في العمل منعا لتدخل روسيا في شؤون تركيا الداخلية ثم انه تمكن في ٢٧ حزيران سنة ١٨٣٩ من اقناع الدول الاوروبية الخمس العظمى بوضع مذكرة اجماعية تثبت اتحادهم وعزمهم على التدخل في حوادث السلطنة العثمانية وبعد ذلك سعى للتقرب من روسيا فاغتنم القيصر نقولا تلك الفرصة لاخماد لهيب عواطفه العدائية نحو الحكومة الفرنساوية وكان يعلم من جهة اخرى ان خديوي مصر يمكنه اذا ما ظهر على مولاه السلطان ان يصير خصما اشد باسا من السلطان ذاته

وانفذ غيزو سفيرا الى لندرة ليقنع الحكومة الانكليزية بوجوب المحافظة على الوفاق المعقود منذ عشر سنوات بين الدولتين الدستوريتين اللتين في

غربي اوروبا ولكنه مع ما بذله من الجهد لقضاء تلك اللبانة لم يدرك الوطر المروم وعقدت انكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا على غير معرفة منه في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ وثيقة لندرة وغايتها حصر سلطة محمد علي باشا في ولاية القطر المصري التي يتوارثها اعقابه فيما بعده وفي ادارة قسم من القطر السوري مدى حياته· وارجاع جزيرة كريت وفتوحه الاخرى الى الدولة العثمانية وقد امهل عشرة ايام لاجراء منطوق ذلك القرار ولما ابى الاذعان لما اتفقت عليه كلمة الدول الاربع المشار اليهن ابحر الاسطول الانكليزي بقيادة الاميرال نابيه الى المياه السورية واطلق قنابله على ثغري بيروت وعكا

وكانت فرنسا تنظر الى تلك الاعمال والاستياء الشديد بالغ منها لانفراد الدول الاربع عنها وتصرفهن على هواهن بامور تهمها جدا وهن غير مكترثات لها فتأثر الرأي العام الفرنساوي من تلك الامور وكان الشعب بجملته يميل الى الحرب للانتقام لكرامته ممن حاولوا الغض منها ونظم الشعراء القصائد الحماسية الرنانة التي دوى صداها في جميع انحاء فرنسا حتى ان الجميع كانوا يتغنون بالابيات التي نظم عقدها الشاعر المطبوع الفرد دي موسه ومطلعها « لقد شاهدنا غير مرة رينكم الالماني » فان اعداء فرنسا الذين اعلنوا الخصومة سنتي ١٧٩٢ و ١٨١٥ هبوا من رقدتهم يتهددون البلاد الفرنساوية بالدمار والويل ولم تغفل الحكومة الفرنساوية نفسها عن التذرع بجميع الذرائع الضامنة لها الدفاع عن ذمارها والذود عن حياضها فدعت جميع الجنود لان يكونوا على اهبة الانطلاق الى الروع وعززت اسطولها وحصنت مدينة باريس ولكنها كانت في الوقت عينه تعلم ان الاعتدال والتوءدة امران ضروريان للبلاد فاستقدمت اسطول البحر المتوسط من سالامين الى طولون

مخافة ان يطرأ امر لا يكون في الحسبان وتجنبا لحدوث مشاكل توءدي الى حرب طاحنة والعياذ بالله٠ وقد قال احد الوزراء « كثيرا ما يحدث ان المدافع تنطلق من نفسها » ونصحت الحكومة الفرنساوية لمحمد علي باشا ان يذعن لقرار الدول وجاهرت بمذكرة نشرتها في ٨ تشرين الاول انها لا تتدخل في الشوءون الحاضرة الا عند مهاجمة الدول لمصر ومحاربتها واختلس الباب العالي تلك الفرصة وتظاهر الدول بالانتصار له واصدرا امرا عاليا بحرمان محمد علي جميع امتيازاته الممنوحة له قبلا

ولما الفى محمد علي باشا ذاته منفردا ورأى انه لا نصير له ولا معين اضطر الى الاذعان لمقتضيات حالته المحفوفة بالقنوط وفي ٢٧ تشرين الثاني وقع وثيقة يعترف بها بانه يكتفي بولاية مصر على ان تكون وراثية في سلالته وقد قضت عليه الاحوال بان يلجأ الى الدول اللواتي اذللنه ويستنجد بهن ليلتمسن له العفو والرضى من السلطان مولاه فحينئذ فتحت ابواب مفاوضات جديدة لم يلق محمد علي باشا ندحة عن التسليم بنتائجها بغير شرط فارجع الاسطول العثماني الى الباب العالي وخرجت الجنود المصرية من سوريا وجزيرة كريت ولما تم كل ذلك طلب ممثلو الدول الاربع المشار اليهن من السلطان ان يعفو عن عامله ويسحب الذيل على ما كان منه ورفعت الى السلطان مذكرة بهذا الشأن صادرة عن موءتمر لندرة فاصدر السلطان خطين شريفين موءرخين في ١٣ شباط سنة ١٨٤١ يثبت بهما محمد علي باشا في ولاية مصر بطريقة وراثية واحتفظ الباب العالي لنفسه بصفة كونه صاحب البلاد حق تسمية كبار رجال الجندية في مصر من قائد الجيش الاكبر حتى الامير الاي وتعهد الخديوي بان يجري بموجب القوانين والنظامات العامة

انجاري العمل بموجبها في السلطنة وان يستمد التفويض من السلطان بزيادة قواته البرية والبحرية وصدر امر خاص فيما يتعلق بتنظيم الجزية وعلى هذه الصورة اصبح الوزير الانكليزي ناعم البال من جهة بلاد الهند مورد ثروة حكومته وبلاده ففازت سياسته وحل نفوذه محل النفوذ الروسي لدى السلطان وحفظ السلطنة العثمانية من التضعضع والتجزئة وكسر فرنسا كسرة ادبية موءلمة ومهد في وجه حكومته السبيل لاحتلال القطر المصري في مستقبل الايام

ومنذ سنة ١٨٤٠ فصاعدا عدل محمد علي باشا عن المشاريع الخارجية المهمة لان النكبات الاخيرة اخمدت نيران مطامعه الملتهبة فقلل عدد جنوده وحصر اعماله في مزاولة الاشغال السلمية العائدة على بلاده بالرقي والعمران وسنذكر ما كان من امره في الخطة الجديدة التي توخى انتهاجها مظهرين ما كان له من الصفات الشخصية فيسهل على القراء ابراز الحكم على ذلك الرجل المصلح الذي بلغ بالقطر المصري غاية لم يكن قد بلغها منذ عهد الفراعنة الاقدمين

=٦=

صورة محمد علي باشا الادبية = صفاته ومعايبه = حمايته للزراعة والتجارة = ترع النيل

سنة ١٨٣٩ بعد معركة نصيب ضرب نوط في فرنسا كتب عليه حول صورة الظافر « محمد علي مجدد مجد مصر » فلننظر الان هل تنطبق هذه الكتابة عليه وقد انقسمت اراء المؤرخين وتشعبت معتقداتهم فيه . فمنهم من يرى فيه بطليموس جديدا احيا اموات مصر ورمم ما تداعى من صرح مجدها ومنهم من يرى فيه متشردا اخدمه الحظ وساعدته الاقدار وطماعا سفاحا الانانية قائده والظلم مرشده . وعندنا انهم جميعهم قد بالغوا في حكمهم على محمد علي باشا فالاولون لم يروا في جميع اعماله سوى حسنات والاخرون سوى سيئات

وكان محمد علي باشا ربعة القامة بارز الجبين كث الحاجبين اسود العينين صغير الفم باسمه كبير الانف احمره قوي البنية يتهادى في مشيه ويتأنق في ملابسه ومع ذلك لم يكن في قصره شيء مما يدل على بذخ المرازبة الاسيويين واسرافهم فكان حاجب واحد يقيم على بابه وكان يحضر المجلس وهو لابس ثوبه العسكري دون ان يكون متقلدا السلاح وكان مولعا بلعب البليardo والشطرنج وكل يوم كان يلعبهما مع القناصل الاوروبيين او بعض ضباط الجند او بعض الجنود

وكان شديد التأثر سريع الحدة يصعب عليه كثيرا التسلط على انفعالاته النفسانية الناجمة عن بعض الاسباب الفجائية وكثيرا ما كان اصحاب الدسائس يتخذون ذلك الامر وسيلة يصيبون بها اغراضهم ومآربهم وكان يهمه كثيرا ان يعلم ما يقوله عنه الاجانب لما كان عليه من شدة الغيرة على مجده وسوءدده ولذلك كان يأمر بان تترجم له جميع اقوال الجرائد الاوروبية المتعلقة به وكانت صحيفة من صحف ازمير تنتقده بلهجة عنيفة حاملة عليه حملة شديدة فقال « افضل ان اعطي مليونا من الريالات ولا تكون هذه الجريدة قد ظهرت وانا المخطىء ببقاء هذه الجريدة في عالم الصحافة فقد كان صاحبها ميالا الى اطرائي ولكنني لم احسن مجاملته »

وكان محمد علي باشا في بدء امره اميا فتعلم القراءة وهو في الخامسة والاربعين من العمر على ان تعلمه الذي جاء متأخرا عن حينه كان يبين ما هو عليه من الجهل في بعض الاسئلة التي كان يلقيها · فذات يوم كانوا يطنبون في حضرته بالصورة التي صنعها هوراس فرنه المصور المشهور عن نكبة المماليك فقال محمد علي باشا « يستطيع هذا المصور ان يصنع صورة اخرى مماثلة لهذه الصورة عن نكبة بونابرت للمماليك في مرسيليا »

وكان محمد علي باشا مع سذاجته الطبيعية ذا خلق حاد يميل الى الاستقلال في الرأي وكثيرا ما كان يجري امورا ما انزل الله بها من سلطان تدل على استبداد منكر فذات يوم رأى في حديقة قصره زهرة لطيفة من فصيلة الاضاليا فاعجبته كثيرا وامر البستاني ان يضع تلك الزهرة في صندوق وينقلها الى تحت الجميزة بجانب غرفته ليتمكن من روءيتها دائما فابدى البستاني له ملاحظته بان الزهرة تذوي اذا ما نقلت ولكنه لم يكترث لملاحظته فاضطر ذلك

البستاني المسكين الى الطاعة للامر ولما كان من الغد نظر محمد علي باشا الى الزهرة فوجدها ذابلة وقد حنت رأسها على ساقها الطويل فامر البستاني ان يحضر لديه ويجلد بالسوط وبينا هم يجلدونه كان يقول . يامولاي لا يمكنك ان تجعل النباتات تطيعك كما يطيعك البشر . وبعد ان تفكر محمد علي باشا مليا في ذلك الامر امر بان يكفوا عن جلد البستاني ثم انه ارسل اليه هدية فاخرة

واذا كان هذا الخديوي قد برهن في مواقف عديدة عن شهامة وعزة نفس وكرم اخلاق واذا كان قد ابى ان يسلم الباب العالي اللاجئين اليه واذا كان اليونانيون الذين في مصر قد صينت ارواحهم واعراضهم ومقتنياتهم وظلوا في مناصبهم في اثناء حملة ابرهيم باشا الى المورة فليس ذلك ناجما عن حب مجرد للنزاهة والمروءة

ونشر محمد علي باشا قانونا بنيت اركانه على الحرية ولكنه لم يوضع قط موضع الاجراء وكان من جملة موا د ذلك القانون مادة تقضي على عظماء البلاد وكبرائها ان يمتنعوا عن معاقبة ارقائهم بالموت وحدث بعد اذاعة هذا القانون بعشرة ايام ان مختار بك الذي كانت له اليد الطولى في وضع ذلك القانون وتبويبه وتنظيم بنوده غضب على اعرابي مسكين كان متقيدا في خدمته فاماته تحت ضرب السياط وكان محمد علي باشا يقول جهارا « ان رأس الفلاح لا يوازي شعرة من رأس التركي » ولم يكترث القوم في مصر للقانون الجديد بل ظلوا يعذبون الفلاحين بالاجر المحمي على النار ويغرزون المسامير في اذانهم ويشبعونهم ضربا بالسياط وقد اطلق على محمد علي باشا من جراء تلك المظالم الحادثة في ايامه لقب « ظالم باشا »

ولم يكن محمد علي باشا شديد التدين بل كان كمواطنيه الالبانيين يتزيا بالدين في الظاهر ومع ما كان في القطر المصري من الوساوس الدينية المنتقلة من المتقدمين الى المتأخرين لم يحجم عن القبض على الحجاج عند عودتهم من البيت الحرام واجبارهم على الانتظام في سلك الخدمة الجندية ولم يكن شيء من الاشياء يصده عن جمع المال باية طريقة كانت فكان يقول «ان الشعب يجب ان يعامل كما يعامل السمسم اي ان يداس ويسحق ليخرج منه الزيت» وقد جرى على هذا المبدأ في جميع اعماله الادارية

وكانت مصر قد دخلت في حوزة الاتراك منذ عهد السلطان سليم الاول الذي افضى اليه الملك سنة ١٥١٢ وهكذا انتقل مسند الخلافة الاسلامية من اخر خلفاء العباسيين المتوكل على الله الذي كان مقيما في القاهرة الى السلطان سليم والى خلفائه من بعده وكان السلطان سليم الاول اول من لقب من سلاطين ال عثمان بخليفة الاسلام الا ان الحكام الاتراك الذين كانوا يرسلون من القسطنينية الى القطر المصري لتولي الشؤون فيه لم يكن لهم من السلطة سوى الاسم ومن النفوذ سوى الظل فان اصحاب الامر والنهي الحقيقيين في البلاد كانوا البكوات او المماليك الذين كانوا يستنزفون خيرات البلاد ويمتصون دماء العباد ويحملونهم من المظالم اوقارا تنوء بهم فكانت جميع الاراضي للمماليك الذين لم يكونوا يتركون للفلاحين الارقاء سوى قسم يسير من نتاج اعمالهم وحاصلات اراضيهم يرد عنهم الموت جوعا

ولما جاء محمد علي باشا وقبض بيديه على ازمة السلطة في بلاد مصر وخلف المماليك في ادارة الشؤون باشر قبل كل شيء الاستيلاء على جميع العقارات ولم يعوض على المغتصبة منهم الا بمرتب يسير يتقاضونه مدى الحياة.

ولما صار بهذا الاغتصاب الصاحب الوحيد لارض مصر فوض امرحراثتها وزراعتها الى الرعية معتبرا اياهم مزارعين ولما كان صاحبا للارض كان له ملء التصرف بها وكامل الحرية بزراعتها كيف شاء ومن ثم صار يتدخل في امر زراعة ما يرتئيه ملائما ويشتري حصة المزارعين بالاثمان التي يريدها٠ ولقائل ان يقول وكيف كانت تجري ادارة تلك الارض ٠ فنجيبه ان ذلك كان امرا في غاية البساطة والفلاح كان ينتظر صدور الاوامر اليه بما يجب ان يزرع به ارضه وهو حامل معوله اومنحن فوق محراثه وعلى مقربة منه جندي تركي بيده سوط ولم يكن احد يعلم اي نوع من الزرع يلقيه في التربة لتأخر ورود الاخبار من اوروبا على الخديوي عن اسعار الحبوب في الاسواق وعن الاصناف التي تلائمه زراعتها اكثر من سواها٠ وبينا الجميع على حبل الانتظار واذا بالنشرات التجارية قد وصلت وفيها الماع الى ارتفاع اسعار القطن فيبادر الخديوي لساعته الى اصدار الاوامر بتعميم زراعة القطن في جميع انحاء القطر وحينئذ يسرع حكام النواحي الى اشعار نوابهم بامر الخديوي وهؤلاء يبلغون الامر الى الاغاوات الذين يوعزون الى الجنود المقيمين بين الفلاحين بوضع الامر السامي موضع الاجراء وطريقة تبليغ الجنود الامر الى الفلاحين مخاطبتهم اياهم بلسان السوط على ظهورهم وترخيصهم لهم بمباشرة حراثة الارض وزرعها قطنا ٠ ولا يقف الامر عند هذا الحد فان القطن نبات صيفي يحتاج الى الماء الذي تسقى به التربة بواسطة النواعير ولا تكون ادوات تلك النواعير المصنوعة من الخشب في حالة تمكنها من رفع المياه ففي الحال تجري حركة لتبليغ الحالة الحاضرة الى المرجع الاعلى فيرفع واقع الحال من الادنى الى الاعلى بالتسلسل حتى

ينتهي الى دائرة الخديوي الخاصة • وهناك يقرر اعطاء الخشب والمسامير والحبال اللازمة لاصلاح النواعير

وتصدر نشرة بتوقيع حاجب الخديوي الاكبر تدل على المكان المودعة فيه تلك المواد وكثيرا مايكون الوقت قد فات حينما تصل المياه الى المواضع المراد ريها ويكون القطن قد يبس

ان الفلاحين وان لم يكونوا اصحاب رقبة الارض لا ينجون من دفع الضرائب الباهظة الموضوعة على تلك الارض

وكتب احد المعجبين بالخديوي ان الضرائب كانت تتناول كل شيء فلم تكن تنحصر ببعض حاصلات الارض بل كانت تعم كل شيء وتوضع باسماء مختلفة واشكال متنوعة وتحول الى نضار كل ما تعثر عليه حتى ان عرق المسكين كان يتحول حتى اخر قطرة منه الى ذهب

وكانوا يدفعون الى المزارعين المساكين ما يصيبهم من نتاج الارض قراطيس مالية ليقبضوها من الخزينة الخديوية فيضطرون الى قطعها وخسارة ثلاثين او اربعين في المائة من قيمتها الاصلية • ولم يكونوا يقدرون ان يبتاعوا ملابسهم اوادواتهم اوالمواد الغذائية الا من مخازن الحكومة باثمان باهظة جدا وكان محمد علي باشا قد سن شريعة تقضي على جميع مقاطعات بلاده ونواحيها وقراها بالتكافل والتضامن من جهة دفع الضرائب للحكومة

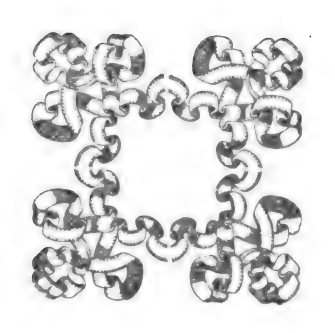
واحتفر الخديوي على ضفتي النيل اقنية جديدة واصلح الترع القديمة ليزداد مقدار الاراضي المزروعة ويكثر خصبها • وعاد محمد علي باشا الى ابراز فكرة بونابرت الى حيز العمل اي انه عاد الى انشاء الخزان العظيم عند فرعي النيل في رشيد ودمياط لرفع المياه اعلى من الدلتا وبناء سدود

وترع يستطاع بواسطتها ان تسقى الاراضي بطريقة منظمة ومن جملة الاعمال الكبيرة التي باشرها الخديوي محمد علي باشا ترعة المحمودية الممتدة بين الاسكندرية والنيل وقد نجز بناءوها في عشرة اشهر سنة ١٨٢٠ وهلك فيها اثنا عشر الف عامل ويمكن ان يقال ان هذه الترعة قد بذل من الارواح في سبيل بنائها اكثر مما بذل من المهج في سبيل فتح بلاد النوبة العليا والسفلى

ولم يكن ذلك الخديوي الداهية يشاء ان تظل بلاده مضطرة الى استجلاب حاجاتها من الخارج فانشأ المعامل والمصانع والمختبرات والمعاهد جريا على ما هو جار عند الشعوب المتمدنة · وانفق من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٣٠ اربعة عشر مليونا من الفرنكات ثمنا للمواد اللازمة لتلك المعامل والمصانع ولما كان موقعها في جهات مختلفة من الصعيد والدلتا وخصوصا في القاهرة وضواحيها كانت تضم من العملة نحوا من اربعين الفا الا ان معظم تلك المعامل والمصانع لم تكن تأتي بالفائدة المطلوبة لان الشعب المصري لا يميل ابدا الى الصناعة ·وكان الخديوي محتكرا صادرات القطر المصري برمته وكان يجني من وراء ذلك ثمار المنافع الوفيرة ولاسيما عندما يعلم المرء الاثمان التي كان يدفعها عند ابتياعه من الفلاحين حاصلات ارضهم ونتاج مواشيهم والاثمان التي يبيعها بها للاوروباويين فكان يشتري جلد الجاموس مثلا بخمسة وعشرين قرشا ويبيعه بمائة وخمسة وعشرين قرشا ويشتري قنطار البن بثلاثمائة قرش ويبيعه بضعف هذا الثمن · وقنطار القطن بمائتي قرش ويبيعه بستمائة قرش وهلم جرا · فهو الذي يحدد اسعار البيع واسعار الشراء فيخفض الثاني كيف شاء ويرفع الاول بقدر استطاعته

ولم يكن من مسيطر عليه او مزاحم له ٠ وكانوا يقدرون ربحه السنوي من وراء تلك التجارة بثلاثين مليون فرنك

ذكرنا موارد ثروة الخديوي وقد بقي علينا ان نبين طرق استعماله لها والجهات التي كان يصرفها فيها





اسمعيل باشا

=٧=

الجيش = الاسطول = المدارس

لا يخضع الشرقيون الا للقوة. فكان المبدأ المأثور عن الاقدمين « وترعاهم بعصا من حديد » ينطبق عليهم في كل جيل وكل عصر وقد عرف محمد علي باشا سر هذا المبدأ وادرك ان امتن عضد يستطيع الاستناد اليه لقضاء لبانته من الاصلاحات التي كان ينوي ادخالها الى بلاده كان الحصول على جيش منظم فاراد الخديوي ان ينشيء جيشا وطنيا بدلا من المماليك الذين لم يكونوا سوى ارقاء جيء بهم في حداثتهم من البلدان البعيدة ودربوا على خوض غمرات الحروب . اجل ان الامر الذي توخاه كان غريبا في بابه محفوفا بمصاعب يعز تذليلها فان القوم في الديار المصرية لم يكونوا قد شاهدوا من قبل فلاحا مرتديا الثوب العسكري الا ان شدة صريمة الخديوي وقوة عزيمته جعلتاه يخفض من خيلاء رعيته ويخضع تمردها ويزيل ما كان يخامرها من الاوهام الواهية وكانت طريقة التجنيد في مصر مماثلة كل المماثلة لطريقة صيد الخيول البرية في غابات امريكا . فالجنود يؤمون القرى ويحيطون بها ثم يدمقون على الفلاحين ويوثقونهم ويسوقونهم امامهم وعيالهم تسير وراءهم ذارفة الدموع

وقد بلغ عدد الجيش المصري بهمة الكولونيل سيف الفرنساوي الذي صار فيما بعد يدعى سليمان باشا مائة وثمانين الف مقاتل وجميعهم منظمون

على قواعد الفن الحربي كافضل الجيوش الاوروبية بادارة ضباط من الاتراك

ولم يكن انشاء الاسطول المصري يخلو من التعجب ولاسيما في مثل تلك البلاد السائد فيها الجهل والعادات القديمة السخيفة فان مهندسا من مهندسي البحرية الفرنساوية يقال له المسيو دي سيريزي صير ساحل الاسكندرية الذي يصعب دنو السفن منه مسلحة منيعة وفي ٣٠ حزيران سنة ١٨٣٧ خرج من تلك المسلحة سبع سفن من الطبقة الاولى وسفينتان من الطبقة الثانية وثماني عشرة سفينة اخرى مختلفة الطراز ومركب بخاري وكان في ذلك الاسطول ١٤٦٠ مدفعا و ١٠٢٧٢ بحارا

وكانت تلك المنشآت الحديثة محركا لجمود الافكار وخمود الهمم وخمول القوم في القطر المصري فشيدت معاهد عديدة للعلم تقاطر اليها ابناء الخاصة من كل حدب وصوب واما ابناء العامة فقد سيقوا جبرا اليها لان الخرافات السائدة على عقول العامة كانت تجعلهم ينفرون من كل شيء جديد • وظلت الحكومة الخديوية مدة طويلة تجري الرزق على طلبة مدارسها ترغيبا وتنشيطا لهم ليثابروا على تحصيل العلم برغبة واختيار

وابتدأ محمد علي باشا نفسه بتنشيط الرعية لاحراز العلم بتعلم القراءة وهو في الخامسة والاربعين من العمر رجاء الا يرى احدا يأنف من تلقي العلم وادخل ثاني انجاله الى المدرسة البحرية • ومع ذلك لم يكن محمد علي باشا من بعض الجهات كثير الاكتراث للتعليم والمدارس فسنة ١٨٤٠ اختار من مدرسة اللغات ثلاثة شبان من ابرع الطلبة وانتدبهم لان يكونوا طباخين في قصره • وسنة ١٨٣٧ انشأ طبيب من مرسيليا يدعى

كلوت بك مدرسة للطب والجراحة في مكان يقال له ابو زابل

وبعد عشر سنوات نقلت الى لقاهرة وقد كان ذلك الجهد الذي بذله محمد علي باشا لاعادة الحياة الى الجسم الذي فقدها منذ مدة طويلة معتبرا في انظار المسلمين المتعصبين جهادا يقارنه الكفر لمناوأة ارادة الحق سبحانه وتعالى · وكثيرا ما كانوا يضطرون في المستشفيات الى ربط بعض المرضى باسرتهم واجبارهم على رغم منهم الى الرضى بالتداوي لاعتبارهم ان ذلك الامر من الاعمال الشيطانية · ولم يكن نفور الناس من الانتظام في سلك الجندية يقل عن نفور المرضى من المعالجة

ولو شئنا تعداد ما اتاه محمد علي باشا من الاعمال الخطيرة في القطر المصري لادى بنا نفس الكلام الى مدى بعيد ولاقتضى ذلك الامر تحبير صحائف كثيرة ولكننا نقف عند هذا الحد ونكتفي بان نبين للقارئ مما مر بيانه ان محمد علي باشا يستوجب ان يطلق عليه التاريخ اسم معيد الحياة الى مصر ومجدد مجدها · وكان هذا الخديوي اسعد حظا من مولاه السلطان محمود الثاني اذ انه تيسر له ان يجري ما شاءه من الاصلاح دون ان يقوم في وجهه مثل العقبات التي قامت في وجه ذلك السلطان · والسبب في ذلك ان مصر لم يكن فيها كما كان في تركيا في ايام السلطان محمود الثاني هيئة اجتماعية نخر عظامها سوس الفساد وعبثت بها ايدي الاحزاب ومزقتها براثن الفتن ولم يكن في مصر تقاليد قديمة يعتصمون باهداب ظلها ولا ماض مجيد يفاخرون به بل كانت ثمت شعب اسلامي يقدر بنحو خمسة ملايين نفس تسلط عليهم زعيم وساقهم على هواه بعصا من حديد ·

وقد عالج محمد علي باشا ان ينشئ من المصريين شعبا بنفس الذرائع التي

تدرع بها السلطان محمود الثاني ٠ فكلاهما قصد ان ينفخ روحا جديدة في جسم هامد كاد البلى يعبث به وكادت الاوهام والتقليد تصيره اثرا بعد عين وقد احرز محمد علي باشا افضلية لم يحرزها مولاه السلطان فاختار من الاوروبيين اختصاصيين يعاونونه على اجراء الاصلاح الذي كان يبتغي اجراءه وكان محمد علي باشا يقول « ان محمودا لبس الزي الافرنجي ولكنه ظل يعمل برأس تركي وانا بقيت لابسا الزي التركي وعملت برأس افرنجي » وهذه العبارة تكفي لوصف هذين الرجلين وصفا جليا وتبين السبب الذي من اجله ثبت بعد موت محمد علي معظم المنشآت التي تمت في ايامه



=٨=

انشآء مدينة الخرطوم = وفاة محمد علي باشا

ذكرنا قبلا ان حوادث سوريا ومالقيه محمد علي باشا من الفشل في بعثته التي قادها اليها نجله ابراهيم باشاالمشهور وقفت سدا منيعا في وجه مطامعه ومنذسنة ١٨٤٠عدل عن ركوب مركب المشاريع العظيمة الخارجية حتى انه لم يعد يفتكر بالسودان الا حين يعوزه المال فيعمد الى استجلابه منها وكان ذهب النيل الازرق شغلا شاغلا له فصحت عزيمته على الذهاب بنفسه ومعه جماعة من المهندسين والمعدنين الى وادي طومات التي كان يعتبرها دائما كنزا لبلاده الا ان احباط مساعيه وخيبة اماله وزيادة نفقات استخراج التبر عن قيمة المستخرج منه لم تأته بالفائدة التي كان يتوخاها ومع ذلك لم تزايل مخيلته تلك الاوهام الفارغة.

واذا لم يكن محمد علي باشا قد ادرك ضالته المنشودة من رحلتـه الى السودان من جهة استخراج القناطير المقنطرة من النضار فانه اتى امرا جليلا وهو انشاء مدينة الخرطوم • وقد عين الخديوي موقع عاصمة السودان الجديدة عند ملتقى النيلين في اجمل موقع في الدنيا • عند مدخل الطريقين النهريين اللذين يمكنان من الصعود الى بطاح بلاد الحبشة او التوغل في افريقيـا الاستوائية عند طرف ذلـك الطريق المائي وذلك الجسر العظيم الممتد فوق بحر من الرمال والمنتهي في الاسكندرية والقاهرة والرابط عالما لا يزال نصفـه

مجهولا بالعالم القديم والشعوب المتسكعة في ظلمات الجهل بالشعوب المستنيرة بمصابيح الرقي والعمران وسنة ١٨٣٠ لم يكن سوى كوخ حقير في الموضع الذي شيدت عليه فيما بعد مدينة ما عتمت ان صارت في مدة وجيزة تضم عشرات الالوف من السكان

وكان لفتح السودان نتيجة اخرى علمية كان العلماء منذ الازمنة القديمة يديرون رحى ابحاثهم عليها اي معرفة ينابيع النيل فان هذه القضية المهمة انتهى الى حلها المهندسون الذين قدموا مع الخديوي او كادوا ينتهون من حلها . بطريقة كان من ورائها فائدة تذكر في عالم العلم

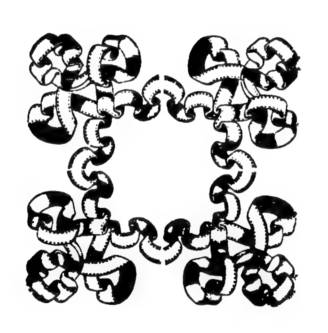
وكانت قوى ذلك الفاتح الداهية قد رزحت تحت اثقال الشيخوخة والمشاق الكبيرة الناجمة عن وفرة الاعمال

وفي شهر تموز سنة ١٨٤٦ شخص محمد علي باشا الى عاصمة السلطنة العثمانية ليوءدي لمولاه السلطان ما يجب عليه من الاكرام والاحترام والاخلاص فاستقبل في القسطنطينية استقبالا احافلا جدا يليق بالملوك ويدل على ما كان لذلك الرجل من المنزلة العالية عند السلطان وكبار رجال حكومته ولكن ما لبثت الاحوال ان تبدلت واصبح مقامه في العاصمة موءلما حتى انه احب التعجيل في مغادرتها والابتعاد عنها . والسبب في ذلك ان محمد علي باشا الذي طبقت شهرته الافاق وامتد صداها في جميع الانحاء كان كالمعيدي فلم يكد عظماء الدولة يدنون منه ويخالطونه ويرون فيه شيخا هما اكل الدهر عليه وشرب ونقضت مرته الايام حتى ارتفع برقع الوهم عن اعينهم وشاهدوا الحقيقة واستبدلوا التعظيم بالتحقير . ولم يأنفوا من جعلهم اياه يشعر بما كانوا يفتكرون به عنه وما عتم السلطان ان اظهر له البرودة وما

لبث رجا لحكومته ان عالنوه بالقحةفلم ير ذلك الشيخ الجليل بدا من الاسراع في العودة الى مصر وقدتولاه القنوط وعبثت به الكآبة والم بـه الضعف وكان اخر عمل مجيد اتاه الخديوي محمد علي باشا في حياتـه الطويلة ترأسه الحفلة التي جرت في ٩ نيسان سنة ١٨٤٧ بحضور القناصل واربعين الفا من المتفرجين وبين قصف المدافع لوضع الحجر الاول من خزان النيل . ومنذ ذلك الحين لم يعد له من شغل شاغل سوى الاهتمام بالاسفار وبركوب مركب الرحلات وفي شهر شباط سنة ١٨٤٨ برح فجأة القاهرة منحدرا الى الاسكندرية ومنها امتطى متن البحر ميمما جزيرة مالطة ثم فصل عنها منطلقا الى نابولي فاستقبل فيهـا استقبالا حافلا للغاية . وبينا هو في تلك المدينة انتهى اليه نبأ فتنة شهر شباط التي جرت في فرنسا وسقوط الملك لويس فيليب عن العرش فحينئذ جاشت في صدر الخديوي مراجل الغضب وقال من المقتضى على جميع العمال والملوك والاقيال ان يكونوا متكافلين متضامنين وجعلته الدعوى ينادي بانه سيزحف في مقدمة جيوشه على مرسيليا ليفتح فرنسا ويعيد الى سريرها لويس فيليب صديقه وحليفه . فعلم جميع الـذين كـانوا يسمعونه يفوه بمثل ذلك الكـلام ان تلك الصدمة التي اصابته على اثر سقوط لويس فيليب اجهزت على ما كان قد بقي له من العقل

وفي ٢٧ اذار ركب خديوي مصر الباخرة الفرنساوية « الاسكندر» وعاد الى مصر وهو على جانب عظيم من ضعف الجسم والعقل ولمـا بلغ الاسكندرية لم يقوَ على مغادرتهـا لاشتداد وطأة العلة عليـه فنزل في سراي راس التين على شاطئ البحر ولم يعد في رأسه ذرة من العقل وفي شهر تشرين الاول نقلوه الى القاهرة ووضعوه في قصر شبرا

وفي ٢ آب سنة ١٨٤٩ حانت منية ذلك الرجل العظيم فلفظ انفاسه المعدودة وهو في الثمانين من العمر فارق محمد علي باشا هذه الدنيا دون ان يكترث احد لوفاته لان القوم كانوا ينتظرون مثل ذلك الحادث وبعد وفاته بيومين احتفلوا في القاهرة بمناحته احتفالا فخما للغاية يليق بمقامه وقد دفن تحت قبة الجامع المشهور الذي شيده



=٩=

ما جرى في مصر بعد محمد علي باشا

سبق لنا القول ان الاحوال قضت على الباب العالي بترك حكومة القطر المصري الى محمد علي باشا وسلالته بطريق الوراثة ولم يبق لحكومة القسطنطينية سوى حقوق السيادة الاسمية وتنصيب بعض المأمورين الكبار واصبح الخديويون منذ ذلك الحين يتصرفون في البلاد تصرف الملوك المستقلين

وعبرت مصر في عهد خلفاء محمد علي باشا الاولين دورا من المجد الحقيقي فكان العلماء الفرنساويون ينقبون عن اثار الفراعنة القديمة ويعنون بدراسة تاريخها المجيد · فماريت بك اكتشف هياكل سيرابيس سنة ١٨٥١ وانشأ متحف بولاق واحرز فردينان دي لسبس معاضدة عزيزي مصر سعيد باشا واسمعيل باشا لانشاء ترعة السويس

واقتضى ذلك المشروع الخطير عشر سنوات «١٨٥٩–١٨٦٩» ومبلغا عظيما من المال · وقد دشنت الترعة في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ الامبراطورة اوجيني قرينة نابوليون الثالث عاهل الفرنساويين وبعد ذلك الحادث من اهم الحوادث في التاريخ العام ولا يخفى ان التجارة كانت قد تحولت عن البحر المتوسط بعد اكتشاف خريستفورس كولمبوس لامريكا فاصبح ذلك البحر الطريق الواصل بين اوروبا والهند والشرق الاقصى · وقد كان ذلك المشروع بمثابة عودة الحياة الى مصر بعدما كادت تفارقها ولكن لم

يكن ذلك الامر لفائدة الدولة العثمانية ومعلوم ان سكــان مصر ليسوا من الاتراك وهي تذكر انها في القرون المتوسطة كانت على جانب عظيم من اليسر والاقبال والخصب حين كان يخفق في ارجائها لواء الدولة العربية وما قلناه عن القطر المصري يمكننا قوله عن البلاد العربيــة والقطر السوري وبلاد ما بين النهرين واصبحت مصر في ذلك العهد عاصمة سلطنة عظيمة وقد تمكن ضابطان انكليزيان يقال لاحدهما سبيك وللاخر بايكر من انجاز حل مسألة ينابيع النيل وذلك من سنة ١٨٥٨ الى سنة ١٨٦٤ واراد اسمعيل باشا ان ينشر لواء سلطته فوق تلك الاقاليم المكتشفة حديثا وفي بضـع سنوات اصبحت بلاد السودان الشرقية والوادي الاعلى لذلك النهر الكبير ولاية مصرية تمتد الى خط الاستواء ولم يمض على مصر عصر من العصور حتى في عهد الفراعنة انفسهم بلغت فيه من السطوة ما بلغته في عهد العزيز اسمعيل باشا (١٨٧٣)

وسكر اسمعيل بــاشا بخمرة العظمة فاضاع التعقل والاعتدال واراد ان يجعل القاهرة عاصمة تليق بسلطنة كبيرة فباشر فيها اعمالا جسيمة غيرت وجهها كل التغيير وفي الوقت عينــه ساقت العجز على مالية الحكومة المصرية فاضطر الخديوي الى بيع ١٧٦٠٠٠ سهم كانت له في ترعــة السويس فابتاعتها منه انكلترا بمائة مليون فرنك ومنذ ذلك الحين صارت بالاشتراك مع فرنسا ذات نفوذ عظيم على مالية مصر

ثم ان سياسة اسمعيل باشا المالية عادت الى اقــلاق خواطر دائنيــه الاوروبيين فاجبرتــه فرنسا وانكلترا على تعيين مراقبين ماليين هما المسيو دي بلينيــر والسير ريفرس ويلسون اللذان ادخلا التوفير والترتيب على

ميزانية الحكومة المصرية · وما مكث اسمعيل باشا ان استثقل وطأة مراقبتها عليه ففصلهما في اول نيسان سنة ١٨٧٩ ففاوضت فرنسا وانكلترا الدولة العثمانية مفاوضة عنيفة اللهجة افضت الى خلع اسمعيل باشا واستبداله بابنه توفيق وحينئذ عاد المراقبان الماليان الى منصبهما

وكان في اثناء ذلك ان قد تألف في مصر حزب وطني شديد النفوذ بزعامة عرابي باشا وغايته انقاذ البلاد من كل نفوذ اجنبي وتقرير استقلالها فاصلى ذلك الحزب الاوربيين حربا ادبية وتجارية ومالية فاضطر معظمهم الى مهاجرة البلاد وذاق الذين بقوا فيها مرارة الهوان

وعادت فرنسا وانكلترا الى التداخل في شوءون مصر وارسلتا من لدنهما اسطولا مشتركا الى الاسكندرية فكان من وراء وصوله الى ذلك الثغر هيجان شديد في الشعب وفي ١١ حزيران سنة ١٨٨٢ حدث اقتتال في حي من احياء تلك المدينة بين المصريين والاوربيين فهجم الاولون على الاخرين واوسعوهم ضربا واثخنوهم جراحا ونهبوا بيوتهم فالتجأ فريق كبير منهم الى السفن الانكليزية والفرنساوية وحينئذ شرع عرابي باشا يقيم الاستحكامات حول الاسكندرية

وفي ٥ تموز اشعرت الحكومة الانكليزية الحكومة الفرنساوية بانها فوضت الى الاميرال بوشان سيمور ان يوجه الى المصريين بلاغا اخيرا ليتوقفوا عن تشييد تلك الاستحكامات وتهيئة معدات الدفاع واذا لم يذعنوا لمنطوق ذلك البلاغ اضطر الى اطلاق القنابل على استحكاماتهم وسألتها عما اذا كانت قد انفذت مثل ذلك البلاغ الى الاميرال كونراد · فاجابتها بالنفي وصرحت بانها تأبى الاشتراك في مثل ذلك البلاغ وفي التدابير العنيفة التي

تدبرتها انكلترا حتى ان مجلس النواب الفرنساوي لم يرخص باحتلال ترعة السويس احتلالا عسكريا

وفي ١٠ تموز ارسل البلاغ الانكليزي الى الحكومة المصرية فلم تجاوب عليه بشيء وفي ١١ منه عند الساعة السابعة صباحا بدأوا باطلاق المدافع على مدينة الاسكندرية · ولم يكُ غير القليل حتى صمتت افواه المدافع في الاستحكامات المصرية التي كانت تقابلها بالمثل · وعند الساعة الرابعة ونصف الساعة دخلت المرفأ مدرعتان انكليزيتان واحتل المدينة جنود انكليز وعادت السكينة الى مجاريها والامن الى نصابه

واجتازت بوغاز السويس جنود اخرى بقيادة السير غارنت ولزلي · وبددوا بسهولة شمل جيش عرابي باشا في موقعة التل الكبير في ١٣ ايلول وبعد يومين دخلوا القاهرة ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا لا يزال الانكليز محتلين القطر المصري

ولم يتمكن الانكليز في مدة قصيرة من الاستيلاء على البلاد المصرية كلها اذ انه في الحين الذي كان فيه الحزب الوطني المصري قد تألف لمناوأة التدخل الاجنبي كان التجار الوطنيون الذين يزاولون النخاسة في السودان مضطربي البال من ازدياد النفوذ الاوروبي في بلادهم والتف حولهم بعض القبائل للانتصار لهم وقام رجل نوبي من دنكله يقال له محمد احمد وادعى المهدوية فتألبت حوله جماعة ممن يذهبون مذهبه ويرون رأيه وناصره زعماء السنوسيين فدعا الناس الى الجهاد وكان قبل ذلك الحين معتزلا عن معاشر البشر ومقيما في جزيرة صغيرة في النيل وكانت عندهم تفوح منه رائحة القداسة

فارسلت الحكومة المصرية جنودا لمقاتلته فظفر بهم وقطع نظامهم ولما رسخت اقدام الانكليز في القاهرة سيروا بعوثا لمحاربة المهدي فاصابها ما اصاب الجنود المصرية من قبلها ٠ واحاطت عصابات عديدة من انصار المهدي بغردون باشا المنفذ الى الخرطوم لتولي قيادة الحملة المصرية ولم تتمكن النجدة المرسلة لخلاصه من الوصول اليه قبل فتك اعدائه به ٠ فان الاهلين خانوا الجنود المصرية الانكليزية ومكنوا المهدويين من دخول المدينة والتنكيل بجنود الانكليز القليلي العدد وكان ذلك سنة ١٨٨٥

وبقيت بلاد السودان ردحا من الزمان في ايدي النخاسيين وكان من وراء ذلك الامر عذر للحكومة الانكليزية لبقائها قابضة بايديها على ازمة الشؤون في القطر المصري فلم تبادر الى الاهتمام اهتماما كافيا بضرب المهدوية الضربة القاضية لئلا تفلت من قبضتها تلك الذريعة التي تذرعت بها

وكان بعد اذلك ان قد هدأت الافكار بعد ذلك الغليان الصناعي وعمدت فرنسا صاحبة الامر والنهي في الكنغو السفلى الى تجهيز بعثة بقيادة اليوزباشي مرشان فوضت اليها اجتياز افريقيا من المحيط الاتلانتيكي الى البحر الاحمر قاطعة وادي النيل في السودان وبلاد فاشودا فقلقت خواطر انكلترا من المقاصد السرية المخبأة وراء ذلك المشروع واستأنفت باسم الحكومة المصرية فتح السودان المصري فاقتضى ذلك الامر ثلاث سنوات من الزمان انفق في اثنائها مبالغ جسيمة من المال وسفكت فيها دماء غزيرة وقد تولى قيادة الجيوش فيها كتشنر باشا او اللرد كتشنر وسنة ١٨٩٦ طرد المهديون من دنكله وسنة ١٨٩٧ من بربر وفي اول ايلول سنة ١٨٩٨ اضرمت نيران معركة نهائية في ام درمان امام الخرطوم اندحر فيها

المهديون واخذت منهم الخرطوم وتقوضت اركان سيادتهم

ووصل اليوزباشي مرشان مع رجاله الى فاشودا فقامت الحكومة الانكليزية باسم مصر التي كانت قد استولت على تلك البلاد مدة طويلة بعد افتتاحها لها منذ ٢٥ سنة وطلبت الى فرنسا الخروج من فاشودا فلم تشأ الحكومة الفرنساوية ان تباشر حربا طاحنة في مثل تلك الاحوال واوعزت الى بعثة مرشان ان تغادر فاشودا فامتثلت للامر وواصلت اكتشاف الاراضي حتى انتهت الى اوبوك والبحر الاحمر بعد ان اجتازت بلاد الحبشة

ورمم على يد انكلترا ما تداعى من صرح الدولة المصرية ولا ينبغي الاغفال عن مطامع الحزب الوطني المصري وهمته وتذكره اعمال عرابي باشا وما يجريه من الاعمال الداعية الى استقلال مصر وما يلقاه من التشجيع بعد نجاح فتيان الترك في عاصمة السلطنة العثمانية لان مصرا لا تزال معتبرة ولاية من جملة الولايات الخاضعة للدولة العثمانية والحاصلة على بعض الامتيازات تحت ولاية حكام من سلالة محمد علي باشا يتوارثون الحكم فيها خلفا عن سلف





